نقد الشعر عند صاحب المثل السائر

للدكتور عبد الله الطيب

سأحاول في هذه الكلمة القصيرة أن أعرض أهم ماتناوله صاحب المثل السائر في من القضايا المتعلقة بنقد الشعر :

أول هذه القضايا ، ضرورة معرفة النحو والصرف واللغة . وهذه القضية جلية لا تحتاج إلى كبير تفصيل .

ثانياً : مسألة العمق الشعرى الذى لايتوصل إليه بشرح المعانى ومعرفة وجوه الإعراب ، ولكن لابد مع ذلك من التغلغل إلى ما اشتمل عليه الشعر من أسرار الفصاحة والبلاغة . قال فى أوائل مقدمته : ومن ها هنا غلط مفسرو الأشعار فى اقتصارهم على شرح المعنى وما فيها من الكلمات اللغوية وتبين مواضع الإعراب منها دون شرح ما تضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة ا . هـ . ص ٤ من المثل السائر ، طبع بولاق سنة ١٢٨٣ هـ .

أحسب أن ابن الأثير أراد بقوله : « غلط مفسرو الأشعار » أن هذا هو الغالب على أساليبهم ، ولا يخفى أن مفسرى الأشعار قد كان مما يهمهم أمر الفصاحة والبلاغة كما كان يهمهم أمر النحو واللغة . وقد كان اختلافهم فى تفسير الألفاظ وظواهر المعانى فى كثير من الأحوال فرعا من تناولهم لجوانب الفصاحة والبلاغة ، من ذلك مثلا ما أخذوه على امرئ القيس حيث قال :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت

تعرض أثناء الوشاح المفصل

فقالوا إن الثريا لاتتعرض. وأورد أبو العباس المبرد هذا البيت فى باب التشبيه يستشهد به على حسنه .

والذى يوقف عنده من كلام ابن الأثير فطنته إلى أن ظاهر المعنى واللفظ فى الأشعار إنما يمثل جانبا من كلها ودلالتها . وأسرار الفصاحة والبلاغة هى التى يكمن فيها جوهر الدلالة الشعرية . على أن ابن الأثير قد نبه فى أول شروعه فى المقدمة أن أسرار الفصاحة والبلاغة نفسها مدارها على الذوق السليم . وأن بيان مواضع الفصاحة والبلاغة مما يستعين به الذوق السليم ويعين على تنميته . قال : « واعلم أيها الناظر فى كتابى أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذى هو أنفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب — وإن كان

(*) ألقى البحث فى الجلسة الحادية عشرة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين ، فى ١٠ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ الموافق ٦ من مارس ١٩٨٢ م .

فيما يلقيه إليك أستاذاً وإذا سألت عما ينتفع به فى فنه قيل لك هذا ـ فإن الدربة والإدمان أجدى عليك نفعا ، وأهدى بصرا وسمعا ، وهما يريانك الخبر عيانا ، ويجعلان عسرك من القول إمكاناً ، وكل جارحة منك قَلْباً ولسانا ، فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بإدمانك ما أخطاك ، وما مثلى فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طبع سيفا ووضعه فى يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلبا ، فإن حمل النصال ، غير مباشرة القتال .

وإنما يبلغ الإنسان غايته
ما كل ماشيةٍ بالرحْل شملال ا.ه»

(ص ٣ من المثل السائر) .

ثالثا : مسألة الابتداع والسرقة والأخذ فى الشعر . ومع أن النقاد الأولين قد فصلوا فى هذا الباب كل التفصيل ، يوشك ابن الأثير أن يكون قد انفرد من بينهم بالفطنة إلى فرق ما يكون ابتداعاً حقا وما يكون سرقة وما يكون من باب توارد الخواطر أو الأخذ المألوف .

وقد تعرض ابن الأثير فى أول كتابه لضرورة معرفة كلام العرب القدماء والاطلاع على أخبار أيامهم ووقائعهم ونبه على أهمية الاطلاع على الأشعار لأن ذلك يعين على الابتكار . قال: (ص ١٨) وأما النوع الرابع وهو الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور فإن فى ذلك فوائد جمة لأنه يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم ، وإلى أين ترامت به صنعته فى ذلك ، فإن هذه الأشياء مما تشحذ القريحة ، وتذكى الفطنة ، وإذا كان صاحب هذه الصناعة عارفاً بها تصير المعانى التى ذكرت وتعب فى استخراجها كالشىء الملقى بين يديه يأخذ منه ما أراد ويترك ما أراد ، وأيضا فإنه إذا كان مطلعا على المعانى المسبوق إليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه . ومن المعلوم أن خواطر الناس وإن كانت متفاوتة فى الجودة والرداءة فإن بعضها لا يكون عاليا على بعض أو منحطا عنه إلا بشىء يسير ، وكثيرا ما تتساوى القرائح والأفكار فى الإتيان بالمعانى ، حتى إن بعض الناس قد يأتى بمعنى موضوع بلفظ ثم يأتى الآخر بعده بذلك المعنى واللفظ بعينهما من غير علم منه بما جاء به الأول وهذا الذى يسميه أرباب هذه الصناعة وقوع الحافر على الحافر ا . ه .

هنا يكاد ابن الأثير يلتقى مع بعض مدارسنا المعاصرة فى أن اتساع الثقافة وبروز ذلك فى صناعة الشعر مما يعين على جعل المعانى أعمق ، بالذى نضيفه إليها من عنصر الرمز المأخوذ من ضروب الإشارة ، والاقتباس . وتأمل قول ابن الأثير « فإن فى ذلك فوائد جمة» ثم عدد من هذه الفوائد

فقال : «لأنه يعلم أغراض الناس ونتائج أفكارهم ومقاصد كل فريق منهم وإلى أين ترامت صنعته من ذلك فإن هذه الأشياء مما تشحذ القريحة...إلى آخر ماقاله»، فمعرفة المقاصد التى يشحذ بها الذهن داخلة فى صميم الرمز . وقد تعلم خبر المعرى إذ ذكروا أنه دافع فى مجلس الشريف—وكان هذا قد طعن فى المتنبى—عن المتنبى با ستحسان لاميته : «لك يا منازل فى القلوب منازل» ففطن الشريف إلى أنه عنى قوله :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص
فهى الشهادة لى بأنى كامل

فأمر بسحبه وإخراجه من مجلسه فيما زعموا فانظر كيف صارت كلمات الغزل :

لك يا منازل فى القلوب منازل
أقفرت أنت وهن منك أواهل

فمع الفطنة والتأمل رمزاً للطعن والتجريح والنقص والكمال

وكأن هذا الجانب من بروز سعة الاطلاع والنظر فى كلام الأولين والرمز به هو الذى جعل ابن الأثير يقدم أبا تمام . على أن ابن الأثير رحمه الله كان ذا لباقة وحسن تأتّ فى طريقة عرض ما يعرضه على قارئيه ، فقد استهل مقدمة كلامه بمدح الآمدى مدحا يظن به أنه سيتبع مذهبه اتباعا . وتقديمه أبا تمـام خلاف صريح كما ترى . ثم مع تقديمه أبا تمام تنضح أسطاره بتفضيل أبى الطيب والميل ميلاشديدا إليه ، وربما صرح بذلك تصريحا فى أكثر من موضع .

على أن ظاهر كلام ابن الأثير هذا ، وهو فى مقدمته التى بين فيها أصول مذهبه ، ربما استنتجنا منه أنه ينكر السرقة وهى مما ألح عليه نقاد العرب إلحاحا ، وعن قدمائهم أخذوه ، وقد فطن ابن الأثير إلى هذا الجانب ، ففصل الحديث وأتقنه فى الباب الذى جعله للسرقات وقد وعد فى مقدمته به حيث قال :«وسيأتى لذلك باب مفرد فى آخر كتابنا هذا إن شاء الله تعالى» ا . هـ ص ١٨ .

قال : (ص ٦ — ٤٦٨)« واعلم أن الفائدة من هذا النوع (يعنى السرقات الشعرية ومعرفتها) أنك تعلم أين تضع يدك فى أخذ المعانى إذ لايستغنى الآخر عن الاستعارة من الأول . لكن لا ينبغى لك أن تعجل فى سبك اللفظ على المعنى المسروق فتنادى على نفسك بالسرقة ، فكثيرا ما رأينا من عجل فى ذلك فعثر ، وتعالى فيه البديهة فعقر ، والأصل المعتمد عليه فى هذا الباب التورية والاختفاء ، بحيث يكون ذلك أخفى من سفاد الغراب وأظرف من عنقاء مغرب فى الإغراب . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه ليس لقائل أن يقول : إن لأحد من المتأخرين معنى مبتدعا ، فإن أول الشعر قديم منذ نطق باللغة العربية ، وإنه لم يبق معنى من المعانى إلا وقد طرق مرارا ،

وهـذا القول وإن دخل فى حيـز الإمكان إلا أنه لا يلتفت إليـه لأن الشعر من الأمور المتناقلة ، والذى نقلته الأخبار وتواردت عليه أن العرب كانت تنظم المقاطيع من الأبيات فيما يعنّ لها من الحاجات ، ولم يزل الحال على هذه الصورة إلى عهد امرئ القيس وهو قبل الإسلام بمئة سنة زائداً فناقصاً ، فقصّد القصائد ، وهو أول من قصد ، ولو لم يكن له معنى اختص به سوى أنه أول من قصد القصائد لكان فى ذلك كفاية وأى فضيلة أكبر من هذه الفضيلة . ثم تتابع المقصدون واختير من القصائد تلك السبع التى علقت على البيت ، وانفتح للشعراء هذا الباب فى التقصيد وكثرت المعانى المقولة بسببه ، ولم يزل الأمر ينمى ويزيد ويؤتى بالمعانى الغريبة واستمر ذلك إلى عهد الدولة العباسية وما بعدها إلى الدولة الحمدانية ، فعظم الشعر وكثرت أساليبه ، وتشعبت طرقه وكان ختامه على الثلاثة المتأخرين ، وهم أبو تمام حبيب بن أوس وأبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى وأبو الطيب المتنبى ، فإذا قيل إن المعانى المبتدعة سبق إليها ولم يبق معنى مبتدع عورض ذلك بما ذكرته ، والصحيح أن باب الابتداع للمعانى مفتوح إلى يوم القيامة ، ومن الذى يحجر على الخواطر وهى قاذفة بما لا نهاية له ، إلا أن من المعانى ما يتساوى الشعراء فيه ولا يطلق عليه اسم الابتداع لأوّل قبل آخر ، لأن الخواطر تأتى به من غير حاجة إلى اتباع الآخر الأول كقولهم فى الغزل :

عفت الديار وما عفت
آثارهن من القلوب

وكقولهم «إن الطيف يجود بما يبخل به صاحبه ، وإن الواشى لو علم بمزار الطيف لساءه» ، وكقولهم فى المديح : إن عطاءه كالبحر وكالسحاب وإنه لا يمنع عطاء اليوم عطاء غد ، وأنه يجود ابتداء من غير مسألة وأشباه ذلك ، وكقولهم فى المراثى : إن هذا الرزء أوسل حادث ، وإنه استوى فيه الأباعد والأقارب ، وإن الذاهب لم يكن واحدا وإنما كان قبيلة ، وإن بعد هذا الذاهب لا يعد للمنية ذنب . وأشباه ذلك ، وكذلك يجرى الأمر فى غير ما أشرت إليه من معان ظاهرة تتوارد الخواطر عليها من غير كلفة ، وتستوى فى إيرادها ، ومثل ذلك لا يطلق على الآخر فيه اسم السرقة من الأوّل ، وإنما يطلق اسم السرقة فى معنى مخصوص كقول أبى تمام :

لا تنكروا ضربى له من دونه
مثلا شرودا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس

فإن هنا معنى مخصوص ابتدعه أبو تمام ، وكان لابتداعه سبب ، والحكاية فيه مشهورة ، وهى أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم

قصيدته السينية التى مطلعها « ما فى وقوفك ساعة من باس » انتهى إلى قوله :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم
فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

فقال الحكيم الكندى : أى فخر فى تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب ؟ فأطرق أبو تمام ثم أنشد هذين البيتين معتذراً عن تشبيه إياه بعمرو وحاتم وإياس ، وهذا معنى يشهد به الحال أنه ابتدعه ، فمن أتى من بعد بهذا المعنى أو بجزء منه فإنه يكون سارقاً له ، و كذلك ورد قول أبى الطيب المتنبى فى عضد الدولة وولديه :

وأنت الشمس تَبْهَر كل عين
فكيف وقد بدت معها اثنتان
فعاشا عيشة القمرين يُحْيَا
بضوئهما ولا يتحاسدان

ولا ملكا سوى ملك الأعادى
ولاورثا سوى من يقتلان

وكان ابنا عدوٍّ كاثراه
له ياءَىْ حروف أنيسيان

وهذا معنى لأبى الطيب . وهو الذى ابتدعه ، أى أن زيادة أولاد عدوك كزيادة التصغير فإنها زيادة نقص ، وما ينبغى أن يقال إن ابن الرومى ابتدع هذا المعنى الذى هو :

يشكى المحب ويلتى الدهر شاكيه
كالقوس تصمى الرمايا وهى مرنان

فإن علماء البيان يزعمون أن هذا المعنى مبتدع لابن الرومى وليس كذلك ولكنه مأخوذ من المثل المضروب ، وهو قولهم : يلدغ ويصمى ويضرب ذلك لمن يبتدئ بالأذى ثم يشكو ، وإنما ابن الرومى قد ابتدع معانى أخر غير ما ذكرته ، وليس الغرض أن يوتى على جميع ما جاء به هو ولا غيره من المعانى المبتدعة ، بل الغرض أن يبين المبتدع من غيره ، والذى عندى فى السرقات أنه متى أورد الآخر شيئا من ألفاظ الأول فى معنى من المعانى ولو لفظة واحدة فإن ذلك من أدل الدليل على سرقته اهـ .

أكثر الأمثلة التى ضربها ابن الأثير لما يتساوى فيه الشعراء من المعانى غير جيدة ، إذ هى مأخوذة من أشعار وأقاويل مأثورة بأعيانها كقول النابغة :

فما الفرات إذا جاشت غواربه
ترعى أواذيّه العبرين بالزبد

يوماً بأجود منه سيب نافلةٍ
ولايحول عطاء اليوم دون غد

وكقول الآخر يرثى قيس بن عاصم المنقرى :

عليك سلام الله قيس بن عاصم
ورحمته ما شاء أن يترحما

وماكان قيس هلكه هلك واحد
ولكنه بنيان قوم تهـدما

غير أن الغرض الذى رمى إليه واضح ، وهو أن من المعانى ما يكثر دورانه

فلا يصير به سابق أحق من لاحق ، وتمثيله بقولهم فى المديح «إن عطاءه كالبحر وكالسحاب» أدخل فى باب المتبذل والمنقول منه فى هذا الباب . والبيت الذى تمثل به أول الأمر :

عفت الديار وما عفت
آثارهن من القلوب

أدل على مراده ، وكان أجدر به لو تحرى له نظائر ، وجل من لا يزل . هذا وقد نبه على أمور من الأهمية بمكان كبير ، منها أن الشكل موضع يقع فيه الابتداع . وقد زعم أن امرأ القيس لو لم يكن له إلا أنه قصّد القصيد ففتح بذلك لمن بعده بابا لكان ذلك له كافيا فى فضيلة السبق . وقد يؤخذ على ابن الأثير نسبة اختراع شكل القصيدة إلى امرئ القيس والمشهور أن السابق فى هذا المضمار هو المهلهل ، وامرؤ القيس جود هلهلةَ خاله وأحكمها . ولعل ابن الأثير عنى هذا . وليس بخارج مما قدمناه من أنه إحسان وإبداع فى باب الشكل .

ومنها الظرافة البلاغية كتعليل أبى تمام الذى ساقه مثلا ، وكتشبيه أبى الطيب للزيادة الناقصة بياءى «أنيسيان» فى التصغير ، وليس قول ابن الرومى :

يشكى المحب ويلقى الدهر شاكيه .
كالقوس تصمى الرمايا وهى مرنان

ببعيد من مداهما فى باب الظرافة البلاغية والذى أنكره عليه ابن الأثير مردود لأن المعنى الذى قصد إليه ابن الرومى هو الذى فى عجز بيته لا فى صدره ، ومحل البراعة والظرافة البلاغية فيه أن العيون ، وهى التى تقتل بالعشق ، يشبهها الشعراء بالسهام ، وقديما وصف الشعراء القوس بأنها إذا رمى بها الرامى أرنت كأنها ثكلى ، قال الشماخ :

إذا أنبض الرامون عنها ترنمت
ترنم ثكلى هيجتها الجنائز

فأقل ما ينعت به ابن الرومى أنه كشف هذا المعنى ، وذلك له فى باب البيان فضل بلا ريب . والخلاصة من كلام ابن الأثير ، وهى التى عليها المعول أنه بعد أن جعل الشكل مما يتناوله الاختراع ، جعل الصياغة — إذ الظرافة البلاغية إنما هى داخلة فى حيز تفاصيل الصياغة — مما يتناوله الاختراع ثم نبه على أن السرقة إنما تقع فى الصياغات وبهذا يكون وفّى الجواب عن مسألة إنكار السرقة التى عسى أن تستنتج من أوائل كلامه .

وقد فصل الحديث فى السرقة وبوبه . وقد ضمن أول بحثه فى موضوع الابتداع وصفا عاما للسرقة أنها موراة خفية ، أخفى من سفاد الغراب كما زعم ، ولعل هذا التشبيه أن يقع من أذواقنا موقعا نابيا الآن ، ولايخفى أنه أخذ نعت السرقة

بالتورية من أبيات أبي تمام فى داليته الوافرية يمدح أحمد بن أبي دؤاد ، وهى مما يدخل فى صميم النقد :

إليك بعثت أبكار المعانى
يلمها سائق عجل وحادى

جوائز عن ذنابى القوم حيرى
هوادى للجمام وللهوادى

شداد الأمر سالمة النواحى
من الإقواء فيها والسناد

منزهة عن السرق المورّى
مكرمة عن المعنى المعاد

لها فى الهاجس القدح المعلى
وفى نظم القوافى والعماد

والعماد أى عماد الشعر إن جعلته مفردا وإن جعلته جمعا فهو جمع لعمود الشعر فمن أبي تمام أخذ الآمدى هذه العبارة المنسوبة إليه وهى أقدم منه ومن أبى تمام على الأرجح فى ما حكى الجاحظ عن خالد بن صفوان أنه قال : « عمود الجمال » يعنى الصفات التى بها يتم الجمال ويكمل . والله تعالى أعلم .

وقد ترى أنه ختم كلمته عن الاختراع برأيه أن السرقات إنما تقع فى مجاله وهو مجال الصياغات ، ثم أخذ فى تبيين السرقات فجعلها خمسة أقسام ، النسخ والسلخ والمسخ وأخذ المعنى مع الزيادة عليه وعكس المعنى إلى ضده . وقد جاء ابن الأثير فى هذا الباب الأخير الذى عقده للسرقات بأشياء تعد من روائعه حقا ، مثل حديثه عن الشعراء الثلاثة : أبى تمام والبحترى وأبى الطيب ، فقال عن أبى تمام : « أما أبو تمام فإنه رب معان وصيقل ألباب وأذهان فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه أطاعته أعنة الكلام وكان قوله فى البلاغة ما قالت حذام » (ص ٤٧٠) ، وقال عن أبى الطيب : « أراد أن يسلك مسلك أبى تمام فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطيه الشعر من قياده ما أعطاه ، لكنه حظى فى شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالإبداع فى وصف مواقف القتال وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الإطراء » وآخر كلامه هنا ينقض أوله ، وكأنه كان أميل إلى تقديم أبى الطيب على أبى تمام ثم مع ذلك مضطربا فيه مترددا (ص ٤٧٠ — ٤٧١) ، وقال عن البحترى : « وأما أبو عبادة فإنه أحسن سبك اللفظ على المعنى المراد أن يشعر فغنّى ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة على الإطلاق فيينا يكون فى شظف نجد إذ تشبث بريف العراق » (ص ٤٧٠) وكأن قول ابن الأثير : « أراد أن يشعر فغنى » تمكين منه للبحترى فى الشاعرية بدليل قوله : « وسئل أبو الطيب عنه وعن أبى تمام وعن نفسه فقال : « أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى ». ولعمرى

إنه أنصف فى حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فإن أبا عبادة أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء فى اللفظ المصوغ من سلاسة الماء فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه إلى الأفهام ، وما أقول إلا أنه أتى فى معانيه بأخلاط الغالية ورقى فى ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية » ا هـ . ص (٤٧٠–٤٧١) والغناء قوى العلاقة بالشعر ، وفى كتاب سيبويه أن الشعر إنما وضع للغناء والترنم ، على أنه لا يستبعد ، إن صحت هذه الرواية من أبى الطيب ، أن يكون قد قصد إلى تفضيل نفسه وحبيب على أبى عبادة لاقتران الشعر بالحكمة وفى الحديث : « إن من الشعر لحكمة » ، وعسى أن تكون هذه الرواية مما افتعل على أبى الطيب لتثبيت تهمة دعوى النبوة عليه ، للمعروف من اقتران الحكمة بالنبوة ، قال تعالى : « ولوطا آتيناه حكماً وعلما » (الأنبياء ٧٤) وقال تعالى فى خبر المسيح عليه السلام : « وإذ علمتك الكتاب و الحكمة والتوراة والإنجيل » (المائدة ١١٠) ، وقال تعالى فى خبر سيدنا يحيى عليه السلام : « وآتيناه الحكم صبيا » (مريم ١٢) وفى خبر لقمان : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » (لقمان ، ١٢٢) .

ونظر ابن الأثير فى قوله : فأدرك بذلك بعد المرام مع قربه إلى الأفهام ، إلى قول البحترى فى ابن الزيات :

لتفنَّنْتَ فى الكتابة حتى
عطَّل الناس فن عبد الحميد

من معان لو ضمنتها القوافى
هجَّنت شعر جرول ولبيد

حزن مستعمل الكلام اختياراً
وتجنبن ظلمة التعقيـــد

وركبن اللفظ القريب فأد
ركن به غاية المراد البعيد

وأبيات البحترى هذه هى أيضا مما يدخل فى صميم النقد . وللشعراء سبق ودقة فى أبواب كثيرة من النقد مما ينبغى أن يتنبه إليه الباحثون فى هذا الباب .

هذا ويؤخذ على ابن الأثير فى معالجته للسرقات أنه أغفل المبدأ الذى بنى عليه كينونتها وأجاب به على مفكرى وجودها بحجة أن المعانى متساوية مشتركة فلم يسلم له إلا باب قسمته الأول وهو النسخ وقد أدخل بعضه فيما وسمه باسم وقع الحافر على الحافر (ص ٤٧٢) واستشهد بقول امرئ القيس :

وقوفاً بها صحبى على مطيهم
يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وقول طرفة :

وقوفاً بها صحبى على مطيهم
يقولون لا تهلك أسى وتجلد

ويجوز أن يكون قول امرئ القيس قد اشتهر وسار فما أراد طرفة إلا تضمينه

وتحسين صناعته بذلك التضمين . ويجوز أن يكون قولهم :

وقوفاً بها صحبي ...

مما صار من طريقة كلامهم ، يأخذ به شاعرهم ، ويغير من لفظه بحسب ما يتطلبه وزنه ورويه ، ويكون على هذا غير داخل حقا فى الذى سماه هو النسخ ، لأن هذا من السرقات ، وقد فرض فى السرقات الخفاء والتورية ، ولعله لو كان قد جعل ما استشهد به من حديث أبى نواس فى باب النسخ لكان ذلك أصوب ، وهو قوله (ص ٤٧٣) : « ومما كنت أستحسنه من شعر أبى نواس قوله من قصيدته التى أولها :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء :

دارتْ على فِتْيةٍ ذلّ الزمان لهم
فما يصيبهم إلا بما شاءوا

وهذا من عالى الشعر ثم وقفت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج على هذا البيت فى أصوات معبد وهو :

لهفى على فتية ذل الزمان لهم
فما أصابهم إلا بماشاءوا » ا .هـ

على أنه يجوز أن يكون أبونواس قد أراد التضمين ، وهو من أسلوبه وكان واسع الحفظ ، ولعل ابن الأثير قد أراد نحوا من هذا المعنى حيث علق على ما تقدم بعد البيت الذى هو من أصوات معبد بقوله : « وما أعلم كيف هذا » ولا ريب يجرى مجرى التضمين لا النسخ قول أبى تمام :

محاسن أصناف المغنين حجة
وما قصبات السبق إلا لمعبد

لأن هذا كان قولا سائرا .

وقد وقع ابن الأثير فى الذى نبه على تجنب الأخذ به ، حيث تتبع تشابه المعانى وبنى عليه سائر الأصناف التى جعلها للسرقات ، ولو قد كان عوّل على الصياغة لكان مذهبه أسلم ، والعجب له كيف غفل عن هذا ، ولا ريب أنه كان يعلم أن البحترى اتهم أبانواس فى بيته :

ولم أدر من هم غير ما شهدت به
بشرقى ساباط الديار البسابس

بالأخذ من الهذلى فى قوله :

ولم أدر من ألقى عليه رداءه
ولكنه قد سلّ عن ماجد محض

لأن حذو الكلام واحد ـــــ

وعلى هذا يقاس أخذ أبى نواس من الأعشى حيث قال :

وداونى بالتى كانت هى الداء

فإنه ولدها من : وكأس تداويت منها بها .

والتشابه هاهنا فى الصياغة أدل من كل شىء .

على أن ابن الأثير ، فى تتبعه لتشابه المعانى ، قد وفق إلى موازنات رفيعة داخلة حقا فى حيز ما قدمه من أصل الصياغة والشكل والخفاء والتورية ، ولعل أجود ذلك جميعه الموازنة التى عقدها بين صفة البحترى لأسد الفتح بن خاقان وصفة أبى الطيب لأسد بدر بن عمار ، وقد خلص فيها إلى تفضيل أبى الطيب ، ولو قد سار على مذهبه فى النقد لفضل البحترى لالتزامه بنعت المبارزة ، إذ أبو الطيب اهتم بالأسد ولا ريب أن أبا الطيب أشعر شعرا هاهنا وإن كان البحترى أصفى ديباجة ومن عجب الأمر أن ابن الأثير قد فضل أبا الطيب أيضا على أبى تمام فى الموازنة التى عقدها بين رثاء هذا لولدين صغيرين ورثاء ذاك لطفل صغير. قال : (ص ٤٨٧) « وأبو تمام وإن كان أشعر عندى من أبى الطيب فإن أبا الطيب أشعر منه فى هذا الموضع » ، وليس فى هذه المقالة لأبى تمام وناصريه عزاء ؛ إذ قد أعطى الحائزة لأبى الطيب كما ترى . وكأن ابن الأثير ما فضل جريرا وصاحبيه على شعراء الجاهلية إلا ليخلص إلى الذى خلص إليه من تفضيل الثلاثة الذين جعلهم لات الشعر وعزاه ومناته عليهم ثم يجعل أبا الطيب خاتم الشعراء أجمعين ، وما أكثر المواضع التى قطع بتقديمه فيها على غيره بلا تردد ، كقوله مثلا (ص ٣١١) : « وسأذكر الموضع الذى حذف منه الفعل وجوابه لتعلق الأبيات بعضها ببعض وهى من محاسن ما يؤتى به فى معنى الوداع ولم يأت لغيره ، مثلها إلخ » . وقال بعد أن أثنى على أبى الطيب الثناء الحسن فى تخلصه : (ص ٤٢٠) والشعراء متفاوتون فى هذا الباب وقد يقصر عنه الشاعر المفلق المشهور بالإجادة فى إيراد الألفاظ واختيار المعانى كالبحترى فإن مكانه فى الشعر لا يجهل ، وشعره هو السهل الممتنع الذى تراه كالشمس قريبا ضوؤها بعيدا مكانها وكالقناة لينا مسها خشنا سنانها ، وهو على الحقيقة قينة الشعراء فى الإطراب ، وعنقاؤهم فى الإغراب ، ومع هذا لم يوفق فى التخلص من الغزل إلى المديح إلخ » .

وكأنه قد كان من معاصرى ابن الأثير الذين كان يعيبهم عصبة فيهم عن أبى الطيب انحراف وبهم ميل إلى تقديم صاحبيه عليه الأول فالثانى ، وكان هو على خلاف رأيهم فى القول بتقديم أبى الطيب وهذا جلىّ من كثرة استشهاده بشعره وإطرائه له ، فأسر هذا القول وأظهر أنه على مذهبهم مداراة لهم أو مجاملة كقوله قبل أن يقطع بتفضيل أبى الطيب فى رثائه الطفل الصغير على أبى تمام وقد مهد بأنه يرى ذلك (ص ٤٨٧) : « أكبر هذا القول جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وقدمه لامع فضيلة القول وتقدمه » . وكأنه يوهم بهذا أن أصحاب هذه المقالة غير الذين هم موضع مجاملته ومداراته ، فتأمل . هذا ومما يؤخذ على ابن الأثير أيضا تنبيهه على ضرورة الحفظ ، لأن ذلك

يعين على جودة النقد وتمييز مواضع الاختلاس والسرق وما إلى ذلك ، ثم هو قدحث بعد ذلك على الاقتصار على الشعراء الثلاثة ومن بعد على ثلاثة العهد الأموى وقلل من شأن فحول الجاهلية ـ ويوشك القارئ له أن يخلص إلى أنه لم يكن حقا عظيم المحصول من معرفة شعر القدماء ، ولولا ما نعلم من أن طريقة الدرس ومنهجه على ذلك الزمان كانت تأخذ الطالب بمعرفة الأصول كمفضليات الضبي وحماسة الطائى ، ودواوين الأولين ، لكنا صَغَوْنَا إلى القول بهذا الرأى ، ولعل الفتنة بأبى الطيب هى التى دفعته إلى ما قطع به من تفضيل جرير وأصحابه على امرئ القيس وأصحابه ثم تفضيل ثلاثة العصر العباسى عليهم جميعا والله تعالى أعلم .

هذا والمسألة الرابعة التى اهتم بها ابن الأثير وهى من كبريات مسائل نقد الشعر مسألة لغة الشعر والنظم فى مقابلة لغة النثر . وقد تعرض ابن الأثير لهذا الباب فى معرض حديثه عن الوحشى من الكلام . وقد فتح باب الحديث بزعم منه جازم أن من الألفاظ قباحا يعرف قبحها بالضرورة وحسانا كذلك . ولا شك أن ابن الأثير قد صدر فى رأيه هذا عن طبيعة الضعف واللين التى كانت غالبة على عصره . وقد توفى رحمه الله سنه ٦٣٧ هـ أى قبل نحو من عشرين سنة من سقوط بغداد فى أيدى التتار وقد ذكر المؤرخون أن جيش الخلافة كان أفره خيلا وأثقل دروعا وأكثر سلاحا من جيش هولاكو ، ومع ذلك لم يثبت هؤلاء المدججون إلا قليلا أمام رماة التتار الحقاف العدة والعتاد .

وقد أنكر على « تأبط شرا » قوله ، وهو من أبيات ديوان الحماسة :

يظل بموماة ويمسى بغيرها
جحيشا ويعرورى ظهور المهالك

قال (ص ٩٨) : «فإن لفظة جحيش من الألفاظ المنكرة القبيحة ويالله العجب ، أليس أنها بمعنى فريد ، وفريد لفظة حسنة رائقة ، ولو وضعت فى هذا البيت موضع جحيش لما اختل شىء من وزنه ، فتأبط شرا ملوم من وجهين فى هذا الموضع ، أحدهما : أنه استعمل القبيح والآخر : أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنها » . ا . هـ وهذا من أخطاء ابن الأثير التى مردها إلى ما سبقت الإشارة إليه من غلبة نوع من الانحلال واللين على طبائع أهل عصره وأذواقهم . ولو قد وضعنا كلمة فريد هاهنا موضع جحيش لنبت كل النبوّ . وذلك أن فى قوله : « جحيشا » حيوية وتصويرا ، إذ قد نظر فى اختياره هذه الكلمة إلى المعهود فى الأشعار وفى البيئة الجاهلية البدوية ؛ من

نعت الحمار الوحشى بالحذر والغيرة والانفراد منصلتاً بأتنه فى القفار ، يتقدمها يربأ أمامها المراقب ، أو يتعقبها وهو يسوقها السوق المفرط الشديد . وقد نعت رؤبة الحمار الوحشى فى أرجوزته القافية :

* وقاتم الأعماق خاوى المخترق *

ولما أراد مدح أبى مسلم صاحب الدولة ببعض الرجز ، أعرض عن ذلك وطلب منه أن ينشده القافية ، فلما صار فيها إلى قوله :

* إذا تتلاهن صلصال الصعق *
* معتزم التجليح ملّاخ الملق *
* يرمى الحلاميد بجلمود مدق *

قال له أبومسلم : « أنا ذلك الجلمود المدق» .

ومما يقوى معنى الحيوية الذى فى قوله : جحيشاً ويعرورى ظهور المهالك .

أن الشاعر احتفظ بمعنى الحمار الوحشى فى سائر البيت ، فجعل المهالك بمنزلة الرواحل ، وجعل جحيشه هذا يعروريها أى يركب عليها عريا بلا سروج ، وجعل لها ظهوراً كما ترى ، وقد نقل صورته من الححش الوحشى النفور المنفرد الكثير التلفت ، إلى الباسل البئيس الذى يثب على ظهور المهالك يمتطيها عريا بلا سروج ، فجعل المهالك بمنزلة الأتن التى يحدوها الحمار الوحشى ، ويقدر عليها وهو يتتلاها « يرمى الحلاميد بجلمود مدق » . وقوله : « يظل بموماه ويمسى بغيرها » مأخوذ أخذا من صورة وحوش الصحراء .

وقد كان أبو تمام ناقدا نافذ البصر فى الشعر لايتقيد فى تمييز جيده من رديئه بما كان هو عليه من مذهب النظم . وقد اختار أبيات تأبط شرا هذه واحتفظ بجحيشها ولم يغيره إلى فريد . وليس الأمرهاهنا إصابة ظاهر رنة الوزن، ولكن أن يصيب الشاعر جوهر المعنى فى الصورة والحيوية والإيقاع جميعا .

ثم بعد أن ذكر كلمات تجرى عنده مجرى « جحيش » فى القبح قال : (ص ٩٩) « والعرب إذن لاتلام على استعمال الغريب الحسن من الألفاظ ، وإنما تلام على الغريب القبيح . وأما الحضرى فإنه يلام على استعمال القسمين معاً وهو فى أحدهما أشد ملامة من الآخر ؛ على أن هذا الموضع يحتاج إلى قيد آخر ، وذلك شئ استخرجته أنا دون غيرى » . . . . كان رحمه الله كثير التزكية لنفسه ، وقد جرّ هذا عليه كثرة الاستشهاد فى باب النثر بأمثلة من إنشائه لوخلاكتابه منها كان أفضل له . . . . قال: وذلك شىء استخرجته أنا دون غيرى فإنى وجدت الغريب الحسن يسوغ استعماله فى الشعر ولايسوغ فى الخطب والمكاتبات وهذا ينكره من يسمعه حتى ينتهى إلى ما أوردته من الأمثلة.إلى آخر ماقاله .

فقدجعل هاهنا للشعر طبيعة قبول أو طبيعة استعداد وتهيؤ لقبول الغريب الذى سماه حسنا دون النثر . ومما مثل به فى هذا الباب لفظ شرنبثة فى قول الفرزدق :

شرنبثة شمطاء من يرتمى بها
يُشبه ولو بين الخماسى والطفل

وقول البحترى « مشمخرة» فى السينية :

مشمخرة تعلو له شرفات
رفعت فى رؤوس رضوى وقدس

قال (ص ٩٩) : « فإن لفظة مشمخر لا يحسن استعمالها فى الخطب والمكاتبات ولابأس بها هاهنا فى الشعر وقد وردت فى خطب الشيخ الخطيب ابن نباتة كقوله فى خطبة يذكر أهوال القيامة فقال : «اقمطر وبالها واشمخر نكالها فما طابت ولاساغت » . . . ولايخفى أن هذا من ابن الأثير اقتيال بلاحجة ، إذ لايخفى أن قول ابن نباتة « اقمطر » أخذه من قوله تعالى : « يوما عبوسا قمطريرا » واشمخر ملائمة لاقمطر فى الجرس وصورة هول المعنى .

هذا وإنما رتب ابن الأثير قضية الفصل بين أساليب الشعر والنثر ، وإن كان قد جاء بذلك متقدما على أصل جاء به من بعد حيث فرق بين حال الألفاظ وهى مفردة وحالها وهى مركبة وذلك قوله : (ص ١١٤) « وأما إذا صارت مركبة فإن لتركيبها حكما آخر ، وذلك أنه يحدث عنه فى فوائد التأليفات والامتزاجات مايخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التى كانت مفردة. » ولعمرى لوكان ابن الأثير تمسك بهذا الأصل وأضرب عما افترضه من القبح الأصيل والحسن الأصيل فى الكلمات لكان أجود وأصح . وعليه يستقيم ماصور به ألفاظ أبى تمام (ص ١٠٦) «كأنها رجال قد ركبوا خيولهم ، واستلأموا سلاحهم ، وتأهبوا للطراد » وألفاظ البحترى حيث قال (ص ١٠٦) « وترى ألفاظ البحترى كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى » إذ هى إنما استفادت هذه الصور فى خياله من أساليب تأليفها ، وأحسب أن ابن الأثير قد أخذ تمثيله هاهنا من بعض ماجاء به ابن رشيق فى هذا الباب ، على تقدير التسليم أن كتاب العمدة كان معروفاً بالمشرق ، وليس ذلك ببعيد ، لقوة ما كان يصله الحجُّ وبُعْد هِمَم العلماء فى تحصيل الإجازات والأسانيد بين أطراف بلاد الإسلام .

وقد فرّع ابن الأثير من قضيته التى قال بها من قبح الألفاظ وحسنها ثم أثر التراكيب وضروب التأليف على ذلك ، فصلا فى السجع . وكان يميل إليه ويرى أنه أعلى درجات نظام الكلام المنثور . وقد اشترط فيه شروطا كاد يقترب به فيها من الشعر ، إذ ألزم صاحب السجع أن يجتنب البرد والغثاثة وعرف البرد والغثاثة « أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع

نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة ومايشترط لها من الحسن ولا إلى تركيبها ومايشترط له من الحسن وهو فى الذرى يأتى به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثواباً من الكرسف أو ينظم عقدا من الخزف الملون » ، ثم إنه اشترط مع هذا مراعاة المعنى وهذا يستفاد ضمنا من سابقة اشتراطه ألا يصرف النظر إلى السجع من غير نظر إلى مفردات الألفاظ إلخ (راجع ١١٦ — ١١٧) .

وقد احتج ابن الأثير لتفضيل السجع بأسلوب القرآن ، وغفل عن أن أسلوب القرآن ليس بزخرفة من نقش أثواب كرسف أو نظم عقد من خزف ملون ، ولكنه شديد الأسر ، فحل الإيقاع ، وقد أنكر ابن الباقلانى أنه سجع أو من المسجوع جملة واحدة .

هذا والمسألة الخامسة ، وستختم بها هذه الكلمة الموجزة إن شاء الله تعالى ، من أهم المسائل ، ولاسيما قضية مضمونها بالنسبة إلى نقدنا المعاصر وضروب أشعارنا المعاصرة وشتى المشكلات المتصلة أو المتعلقة بها ؛ وهى مسألة الإطالة فى الشعر . قال ، وهو فى آخر كتابه (ص ٥٠٣) : « إن الشاعر إذا أراد أن يشرح أموراً متعددة ذوات معان مختلفة فى شعره واحتاج إلى إطالة ، بأن ينظم مئتى بيت أو ثلاثمئة أو أكثر من ذلك ، فإنه لايجيد فى الجميع ولافى الكثير منه ، بل يجيد فى جزء قليل ، والكثير من ذلك ردىء غير مرضى ، والكاتب لايوتى من ذلك بل يطيل فى الكتاب الواحد إطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس أو أكثر ، وتكون مشتملة على ثلاثمئة سطر أو أربعمئة أو خمسمة وهو مجيد فى ذلك كله وهذا لا نزاع فيه لأننا رأيناه وسمعناه وقلناه ، وعلى هذا فإنى وجدت العجم يفضلون العرب فى هذه النكتة المشار إليها ؛ فإن شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من أوله إلى آخره شعرا وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم كما فعل «الفردوسى» فى نظم الكتاب المعروف بشاه نامه ، وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه ، وهذا لايوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر » . اهـ

القضية التى شرع بها وهى أن الإطالة يكون معها الإسفاف قائمة مسلم بها فى جميع أودية البيان ، النظم والنثر والخطب والمشافهات والرسائل وهلم جرا. والفرق بين الشعر وغير الشعر خاصة فى هذا الباب فرق درجة « كمّ » ودرجة « كَيْف » . وأحسب أن ابن الأثير تأثر ههنا بمقدمة المرزوقى لشرحه كتاب « الحماسة » فقد تعرض فيها لفضل الكاتب على الشاعر . وقطع ابن الأثير بأن الكاتب مما تتأتى له الجودة مع

الإطالة ، وتزكيته نفسه فى مضمار ذلك ، غير مسلم به ؛ وكان أصوب لونبه على ضيق مجال الشعر العربى على النحو الذى نبه به ابن المعتز حيث قال :

إن ذا الشعر فيه ضيق مجال
ليس كل الكلام ماشاء قالا
يكتفى فيه بالإشارة والوحـ
ـى ويحتال قائلوه احتيالا

وقد قال البحترى :

والشعر لمح تكفى إشارته
وليس بالنثر طولت خطبه

وكون الشعر لمحاً ، فرق «كيف» بينه وبين النثر ، وكونه صناعة ذات أوزان وقواف وإيقاع يحدث فرقاً فى «الكم» .

وتبقى بعد مسألة أسلوب العرب وأسلوب العجم فى هذا الباب . وسجع العربية لو وقع فى لغة من لغات العجم لعدّ شعراً فها هنا اختلاف بين العربية وغيرها فى نفس صناعة الشعر يجب لفت النظر إليه . ومن العجب أن ابن الأثير شبه « شاه نامه » فى باب الفصاحة عند الفرس بالقرآن فى باب الفصاحة عند العرب ، وهو يعلم أن القرآن فى العربية ليس بشعر ، وليس المُبْعِد له عن الشعر أنه ليس موزون مقفى فحسب . ولكن يبعده عن الشعر فى المكان الأول أنه لاتفاوت فيه ولا اختلاف وأن الناسخ والمنسوخ فيه مرتبان على التدرج فى التشريع والتخفيف وفى الشعر التفاوت والاختلاف ؛ لأنه يصدر عن انفعالات قلوب البشر ، وقلوب البشر تتقلب ، يغضب الشاعر فيهجو وينشرح صدره فيمدح وقس على ذلك ، قال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » .

ومع أن صناعة العجم شِعْرَهم تمكنهم من الإطالة فيه ، لايسلم مع ذلك شاعرهم من الهبوط والإسفاف فى مواضع ، حتى إنما تسند إليه الفصاحة والتبريز من أجل مواضع الإجادة التى يصيبها ، فيكون نعت منظومته كلها بالجودة وبالفصاحة من باب التغليب وإطلاق الجزء على الكل . وهذا . المعنى قد فطن له الناقد الإنجليزى كلردج ، وعلله فى فصل له مشهور متداول من كتابه « بيوغرافيا ليتراريا أى الترجمة الأدبية » وهو كتاب متعدد الموضوعات فيه مذكرات واستطراد بعد استطراد ، وخوض فى أنواع من الأقاويل تكون أحيانا غير مرتبطات ببعض ونظرات فى النقد ثاقبة . وقد كان ممن يقول بأن للشعر لغة غير لغة النثر ، واحتج بأن لغة الكتابة فى النثر غير لغة المحادثة وذلك لمايقع فيها من أناة الصنعة ، وهذا عنصر أقوى فى الشعر والفصل المشهور الذى تعرض فيه لمسألة مايعترى النظم بالضرورة من عنصر اللاشعر هو الرابع عشر فى أول المجلد الثانى من طبعة لندن (١٩٠٧ م) لكتابه المشار إليه آنفا ، وقد فرق فيه بين المنظومة والشعر بحجة أن الشعر إبداع مصدره فى الخيال ، والإبداع نادر بالضرورة والمنظومة

لايمكن أن تكون كلها إبداعاً . والحجة التى لجأ إليها كلردج فلسفية دينية السنخ يمكن رد أصولها إلى كلام أبى بكر بن الباقلانى فى إعجاز القرآن . وإذا صرفنا النظر عن الجانب الدينى اللاهوتى فى كلام كلردج (راجع كتابه المجلد ١ ص ٢٠٢) فإن خلاصته أن المنظومات الطوال يدخلها الضعف واللاشعر . وعلى هذا تسقط الحجة التى تنظر إلى مطولات النظم الأعجمى بنوع من الافتتان .

ورحم الله نصر الله بن الأثير . فإن أقل مايثنى عليه به فى كتابه «المثل السائر» سلاسة أسلوبه ووضوح الفكرة عنده . وقد كان مثله الأعلى فى صناعات النثر والنظم أن يكون الشعر ساخنا ولهذا نجد ميله إلى المتنبى ظاهرا، وأن يكون النثر مسيطرا فيه المعنى على اللفظ مع العناية بهذا وحسن اختياره ، وطريقة سجعه وتدفقه فى شتى أبواب كتابه تشهد بالتزامه بهذا المثل الأعلى الذى ارتضاه وأما تزكيته نفسه فلعل الرجل قد كان له خصوم يعارضهم والله أعلم ، هذا وعسى أن نكون وفيناه فى هذه الكلمة الموجزة بعض حقه . ونختم بما ختم به رحمه الله كتابه من الصلاة على النبى وعلى آله وصحبه والتسليم تسليما كثيرا ، والحمد لله سبحانه وتعالى فى المبدأ والختام .

عبد الله الطيب
عضو المجمع من السودان

(*) طبع كتاب Biographai literana سنة ١٨١٧ م ثم كانت طبعته الأولى بعد ذلك سنة ١٩٠٧ والفصول النقدية الهامة المفيدة التى يرجع إليها فيه هى ١٣ ، ١٤ ، ١٨ وتكثر الإشارة إلى هذه الفصول فى كتب النقاد الانجليز ونقول ، على طريقه ابن الأثير ، قد رجعنا إليها وإلى كثير مما كتبوا والله المستعان .